رسالة جوابية من الفلسطينيين إلى السيد رونالد شليكير

القنصل الأمريكي العام بالقدس وإلى الشعب الأمريكي

تحية طيبة لك فوق أرضنا المقدسة، وبعد:

قرأنا أمس رسالتك الموجهة إلى الشعب الفلسطيني في الذكرى الأولى للحادي عشر من أيلول سبتمبر. وإنني آمل أن تقرأ هذه الرسالة الجوابية بذهن منفتح، ثم تتكرم بالمساعدة، بالطريقة التي تراها ملائمة، في تقديم هذا الرد لأية صحيفة في الولايات المتحدة كي تتوفر لرسالتي فرصة للنشر، وقبل أن تفعل ذلك أنبهك مسبقا، من قبيل الأمانة والصراحة، إلى أنني واحد من النواب الأربعة عشر الذين منعتهم إسرائيل من السفر من غزة إلى رام الله، ووجب التنوية عن ذلك لئلا يحدث لو أنك استجبت لهذه المساعدة أن تصبح عرضة للمؤاخذة لنقلك وجهة نظر نائب فلسطيني صنفته أجهزة السيد شارون بكونه خطرا على أمن إسرائيل، علما أنه إذا كان لهذا التصنيف من سبب، فهو بدون أدنى شك سبب متعلق بوجهات النظر السياسية للنائب المذكور الذي يتحدى أن يكون لدى الإسرائيليين أي سبب آخر.

نحن نقصدك في هذا المعروف الصغير لأننا نعرف أن منصب القنصل العام في القدس هو المنصب الأعلى الذي جعلته الخارجية الأمريكية واسطتها مع كياننا الفلسطيني (حتى تتجنب الاعتراف بالشخصية الدولية لهذا الكيان). ومن صميم مهام المبعوث الدبلوماسي، حتى لو كان مجرد قنصل، أن ينقل أفكار الناس إلى بلده كما ينقل أفكار بلده إلى الناس.

انصبت رسالتك إلينا بكاملها على مسألة الإرهاب في وقت نتعرض فيه كل يوم، ليلا ونهارا، لإرهاب الدولة الإسرائيلية. وأنت تعلم أن الضفة الغربية واقعة تحت الاحتلال العسكري وأنظمة منع التجول وأن قطاع غزة تعرض خلال الأيام الأربعة الماضية بشكل متواصل دون انقطاع لأعمال الاختراق والنسف والتدمير واقتلاع الأشجار وتجريف الأراضي إلخ إلخ.. ولا بد أنك تعلم أن كل مطلع شمس على الفلسطينيين يحمل إليهم مصرع أعداد من هذا الشعب الصغير الذي تعيش سعادتك بين ظهرانيه. أليست هذه الأفعال إرهابا؟ أليس دوي طائرات إف ١٦ الأمريكية فوق رؤوسنا كل حين إرهابا آخر؟

أليس غريبا ياسيد شليكير أن رسالتك خالية بالكلية من أية تعزية لنا بالقتلى الذين لم نتوقف عن دفنهم يوميا خلال شهور عديدة ماضية، وخالية من أية إشارة إلى معاناتنا الهائلة وآلامنا الفادحة ومصاعبنا اليومية المأساوية غير العادية؟ إن الباعث على هذا السؤال البديهي هو كونك القنصل في القدس ولست السفير في تل أبيب. ولدينا فكرة أن المبعوث الدبلوماسي في بلد من البلاد يكون مختارا في المعتاد من بين الدبلوماسيين الذين يملكون قدرا من التفهم للبلد الموفدين إليه. فما بالك لا تتجاسر، واسمح لي بالكلمة، على أن تومئ مجرد إيماء إلى آلامنا، حتى يكون لرسالتك ولكلامك وقع أفضل على الأقل في نفوس قرائك؟ أنت دبلوماسي وتعرف ذلك أفضل مما نعرف، أم أن عوامل معينة أنستك متطلبات الدبلوماسية معنا؟ وكيف تتصور أن بوسع الذين يتلقون على رؤوسهم نارا ودمارا والذين يعانون الجوع والذين يصاب أطفالهم يوميا بالموت وبالعاهات وبالذعر أن يتذكروا وهم في غمرة ذلك كله حدثا وقع منذ عام في بلد يضطهدهم دون سبب؟

أنت تقول إن " من الواجب علينا أن نتفهم الآخرين حتى نستطيع أن نتعايش معا بغض النظر عن أعمال الناس المختلفة ". وهذا صحيح تماما. ولكن التعايش والسلام ليس مقطوعة موسيقية يفسر كل مستمع فحواها حسب حالته النفسية. إن السلام هو بالأحرى مجموعة من الاشتراطات التي تحقق العدالة، ولو نسبيا، بين أطراف علاقة ما.فتتيح لمشاعر التعاطف الإنساني التي لا يخلو منها قلب بشر أن تنتعش وأن تنعكس على العلاقات بين المتعادين. بيد أنه إذا ظن أحد الطرفين أنه يستطيع أن يفرض على الطرف الآخر حالة من الخرس والخوف والقمع بالقوة ونجح فعلا في تحقيق ذلك طوال زمن معين فإن ذلك لا يمكن أن يعد سلاما، بل يمكن أن تدعوه هدنة قسرية. وهذا هو للأسف السلام الذي يريد شارون فرضه على الفلسطينيين.

فما موقفكم أنتم الأمريكيين من ذلك؟ هل توقفتم عن مساعدة إسرائيل منذ قيامها حتى اليوم ضد جميع الاشتراطات التي تحقق قدرا ولو نسبيا من العدل ومراعاة مصالح الفلسطينيين والعرب وبالتالي تحقق سلاما بمعناه الرضائي المستقر؟

إنكم أيها الأمريكيون مدهشون في تجاوزكم عن رؤية وجهة النظر الفلسطينية وعن تقديرها وأخذها بالحسبان والاعتبار. إنكم لا تريدون مثلا أن تتذكروا أن اليهود في فلسطين في أوائل القرن العشرين لم يكونوا يتجاوزون بضعة آلاف بينما كان العرب مسلمين ومسيحيين يعدون بمئات الآلاف، وأن عملية إقامة إسرائيل في أواخر النصف الأول من القرن جرت بطريق الإتيان بيهود من الغرب والشرق تدريجيا وفرضهم على المكان بفعل الانتداب البريطاني، علما بأن أيا من أولئك اليهود لم تكن له ولا لآبائه ولا لأجداده أية علاقة بفلسطين ولا بالشرق كله. أليست للفلسطينيين العرب أية حقوق في بلادهم؟ ولماذا تقف الولايات المتحدة وراء الدعاوى والسياسات والأفعال الإسرائيلية دون قيد ولا شرط، ولماذا تمول إسرائيل بكل شيء بما في ذلك كل جديد في الترسانة الأمريكية وتصب كراهيتها كلها فوق رأس الفلسطينيين والعرب؟ ولماذا تتجاوزون عن الأساسيات التاريخية في شأن الصراع العربي ـ الصهيوني، وعن الحقائق التي تشاهدونها بأعينكم؟ ما الذي فعله الفلسطينيون ضدكم يا سيد شليكير؟ بل ما الذي فعله العرب والمسلمون ضدكم؟ أليست الرفاهية الأمريكية مدينة ولو جزئيا للعلاقة الاقتصادية القائمة مع بلاد العرب؟ ألم تحددوا أسعار النفط بما يناسب مصلحتكم الصناعية أولا ومصلحة الغرب ثانيا، واختزنتم البترودولارات في بنوككم؟ هل يمكنك بينك وبين نفسك أن تحسب الأرباح التي عادت عليكم من هذه العلاقة وتقارن ذلك بطبيعة العلاقة بينكم وبين إسرائيل التي هي علاقة عطاء من جانبكم وأخذ من جانب إسرائيل على طول الخط؟

إنك تتكلم عن جريمة ١١ أيلول. فما علاقة الفلسطينيين بها؟ هل فكروا فيها؟ هل خططوا لها؟ هل شاركوا بتنفيذها؟ ثم لنفرض وفقا للمنطق الأمريكي أن أمريكيا قد ألقى بقنبلة ذرية على هيروشيما أو ناجازاكي، فهل يعد جميع الأمريكيين مجرمين إلى يوم القيامة؟ الحقيقة أنكم غير موضوعيين بتاتا في كل ما يختص بنا وبحقوقنا، وأنكم تواصلون عدوانا مستمرا علينا منذ اعترف هاري ترومان بإسرائيل (قبل أن تقوم) حتى يومنا هذا.

إنك تتكلم أيضا عن أعداء السلام. ونفهم أنك تقصد بهم حماس والجهاد. فهل تستطيع أن ترجع إلى الأعوام ١٩٩٤، ١٩٩٥، ١٩٩٦، ١٩٩٧ لترى أن حالة من الهدوء الكبير عمت المنطقة في أعقاب الاتفاق الانتقالي، بحيث لم تبدأ المتاعب إلا بعد تنكر الإسرائيليين للاتفاق وبعد اغتيال رابين وبعد مجيء أعتى اليمينيين الإسرائيليين إلى الحكم في إسرائيل.

نحن نريد أن نسمع منكم وأن تسمعوا منا يا سيد شليكير. وما من أحد في منطقتنا يحمل الكراهية لكم بشرا كالبشر، ولكن ما من أحد يحب سياساتكم. ونحن معك في أن على الجميع أن لا يفقدوا الأمل أبدا. ففقدان الأمل نوع من الكفر والضلال. ولكن المشكلة فيكم أنتم أيها الأمريكيون. فشيئا من التوازن! شيئا من المنطق! شيئا من العقل! فإن دولة كبرى مثلكم بدون توازن ولا منطق ولا عقل قد تعرض الكرة الأرضية كلها للهلاك. ونحن من جانبنا لا نريد معاداتكم، ولكن الصهاينة جندوكم لهذه المعاداة رغما عنا الشاعر العربي القديم يقول:

أثني عليّ بما علمتِ فإنني سمح مخالطتي إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم